بسم الله الرحمن الرحيم

سلطنة زنجبار الإسلامية

بين الإنجليز والألمان

للدكتور محمد سيد محمد

لم يكن غريبا بعد الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ أن تسيطر أعالي النيل على تفكير اللورد سولسبرى رئيس حكومة المحافظين ، فالاسطول يمكنه حماية مصر من ناحية البحر المتوسط ، ولكن أية دولة أوربية منافسة تستطيع أن تشق طريقها من الجنوب طالما أن السودان واقع تحت سيطرة المهديين · ورأى سولسبرى أن يسد ذلك المنفذ الخلفي بالطرق الدبلوماسية حيث كان الالمان قد لجأوا الى الاستفادة من مراكزهم فى شرق افريقيا لتهديد انجلترا ، ورفضوا دائما تحديد أي مجال للتوسع من شرق افريقيا نحو الداخل (١)

وتبدأ صلة بريطانيا بشرق افريقيا منذ أن أعلنت عن سياسة مكافحة الرق ، وعن طريق مصالح رعاياها من الهنود وجيرانهم العرب فى الخليج العربي ، اذ كان ساحل شرق افريقيا معروفا تماما لعرب جنوب الجزيرة منذ أقدم العصور ، وبعد ظهور الاسلام بدأت جماعات عربية تستقر في موانى هذا الساحل ، وكانت تتألف من التجار والمهاجرين والفارين من وجه المنازعات بين الفرق الاسلامية ، ولم يهتم العرب بالتقدم نحو الداخل ، واكتفوا بتبادل التجارة مع سكان المناطق الداخلية

وبعد أن اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح ، وصل نفوذهم الى هذا الجزء من ساحل شرق افريقيا في بداية القرن السادس عشر ، ولم يكد ينتهي ذلك القرن حتى تعرض نفوذهم للاضمحلال ، وفى منتصف القرن التالي قضى تماما على هذا النفوذ ليحل محله نفوذ سلاطين مسقط أصحاب عمان ·

ففي نهاية القرن السابع عشر أرسل سلطان مسقط أسطولا الى الساحل الشرقي استطاع بمعونة الاهالي طرد البرتغاليين ، وباتت الموانى والجزر بل ومقديشيو ذاتها التي احتفظت باستقلالها أيام البرتغاليين ـ تخضع اسميا للسلطان

1 — Taylor, A. J. P., The Struggle for Mactery in Europe, 1848 - 1918, Oxford 1954, p. 329 (Footnote)

ولكنها فى الواقع كانت تتمتع بالاستقلال فقد كان لدى سلاطين عمان من المشكلات العربية ما صرف نظرهم عن هذه المناطق البعيدة ٠

وكان الحكم فى ممباسا ينحصر فى قبيلة تدعى « مسارا » ، وكان على رأسها ثلاثة أشقاء هم عبد الله بن أحمد ومبارك وسالم ٠ فلما تولى عبد الله الحكم صمم على تحرير ممباسا من تبعيتها لسلطان مسقط ، وعلى هذا الاساس أرسل الى السلطان سعيد فى عمان بعض البارود وقميصا من الدروع وقليلا من القمح عوضا عن الجزية الكبيرة المعتادة ، ولم يعلق السلطان بشيء على هذا التحدي ، ولكنه بات يتحين الفرص المناسبة ٠ وقيل أن عبد الله سافر الى بومباى وطلب معونة حكومة الهند البريطانية فى الصراع المرتقب مع سلطان مسقط ، ورغم انه استقبل بحفاوة ، الا انه لم ينل أي وعد بالمعونة ، وقد استطاع عبد الله أن يحتفظ باستقلاله حتى وفاته عام ١٨٢٢ ، فسارع السلطان سعيد الى غزو برافا ولامو وبمبا وزنجبار ٠ وفى العام التالي كان يعد العدة لغزو ممباسا ٠ فالتجأ مبارك الى الكابتن (وليم فتزوليم أوين) وهو ضابط بالبحرية البريطانية كان يعمل فى مياه شرق افريقيا تحت ستار مكافحة الرق ٠

وعقد الكابتن (أوين) فى فبراير ١٨٢٤ معاهدة مع سكان الجزر تقرر بمقتضاها وضع ممباسا والموانى الواقعة فيما بين ماليندى وبانجانى تحت الحماية البريطانية كما تقرر أيضا أن يقيم فى ممباسا ممثل للحكومة البريطانية وأن يحصل البريطانيون على نصف الايرادات وتحصل قبيلة « مسارا » التي ينتمي اليها البيت الحاكم فى البلاد على النصف الاخر ، ويسمح للبريطانيين بالاتجار مع الداخل ، وتقرر أيضا تحريم الاتجار بالرقيق ٠

ويبدو أن سكان ممباسا لم يدركوا تماما مدلول كلمة « الحماية » Protection التي وردت فى المعاهدة ، فان الامر بالنسبة لهم لم يخرج عن حمايتهم ضد أعدائهم فى مقابل مبلغ من المال سنويا ، وبالطبع لم يدر بخلدهم أن ذلك يتضمن تدخلا سياسيا من جانب الدولة صاحبة الحماية ٠

وبالفعل رفع العلم البريطاني فوق مدينة ممباسا لمدة عامين الى أن رفضت الحكومة البريطانية الموافقة على هذه الاجراءات من جانب الكابتن « أوين » وأنزل العلم (١) ٠

ولما انسحب البريطانيون ، قرر السلطان سعيد فى الحال الانتهاء من أمر ممباسا ، ولما رفضت التسليم بلا قيد أو شرط ، أبحر بالاسطول وبعد تبادل النيران مع قلعة المدينة أمكن الوصول الى حل وسط ، فتم الاتفاق على تسليم القلعة للسلطان ليضع فيها خمسين جنديا ، وان يحصل على نصف الايرادات بشرط أن يظل الحكم فى يد سالم ــ الذي خلف شقيقه مبارك ــ وورثته من بعده ٠

---

1 — Perham, M. Lugard, years of Adve ntwre, London 1956, pp. 163 — 5 .

وبعد وفاة سالم أنزل السلطان قواتـه سرا الى البر وألقى القبض على خمسة وعشرين من زعماء قبيلة (مسـارا) وكبلهم بالاغلال ونفاهم الى مسقط حيث ماتوا جميعا فى الاسر ، وتفرقت القبيلة نحو الجنوب ·

وبعد أن تم للسلطان اخضاع ممباسا ، نقل سلطنته من مسقط الى زنجبار عام ١٨٤٠ ، وأقامت الولايات المتحدة قنصلية لها هناك وتبعتها بريطانيا وفرنسا (١) ·

واستطاع السلطان أن يحقق لنفسه السيادة على طول الساحل الشرقي لافريقيا من البحر الاحمر شمالا حتى الممتلكات البرتغالية فى موزمبيق جنوبا هذا فضلا عن المناطق الواقعة بين الساحل وبحيرتي فيكتوريا وتنجانيقا فى الداخل ، وكان يدير كل هذه الممتلكات من جزيرة زنجبار وتقع تلك الجزيرة على خط عرض ٧ درجات جنوبا بالقرب من الساحل ولا يفصلها عنه الا بضعة الاف من الامتار ، وكانت فى الاعوام الاخيرة من القرن التاسع عشر بمثابة الميناء الوحيد الصالح لرسو السفن الكبيرة فى تلك المنطقة ، ثم لم تلبث أن تحولت الى مركز تجارى هام اذ كانت تنتهى اليها جميع القوافل القادمة من داخل القارة ، وكانت أيضا أكبر سوق للرقيق فى افريقيا ، وكانت رائجة التجارة موفورة الثراء ذات تربة خصبة ، فباتت بريطانيا تحلم بأن تجعل منها (هونج كونج) اخرى فى افريقيا (٢) ·

ويكفي أن تلقي نظرة على خريطة شرق افريقيا ليتضح أن زنجبار كانت تعد نقطة البداية لاية اتصالات بمنطقة البحيرات فى داخل القارة : فالطريق الشمالي (مصر والنيل) كان طويلا للغاية فضلا عن أنه اغلق طوال سيطرة المهديين على السودان ، أما طريق الغرب «نهر الكونجو» فكان لا يزال مجهولا ، ولم يبق سوى الطريق الشرقي ، وهو طريق سهل ميسر · · وبذلك تحولت زنجبار الى مدينة عالمية ومركز سياسي خطير الشأن بالاضافة الى أهميتها التجارية وصار مثلا شائعا : اذا نفخت بالمزمار فى زنجبار ، رقصت منطقة البحيرات (٣) ·

وجرت العادة على أن يعهد سلطان مسقط بالسلطة الى أحد أقربائه ، ولكن حدث أن ساءت العلاقات بين السلطان وأخيه مجيد سعيد النائب عنه فى زنجبار وتدخلت بريطانيا فى هذا النزاع ، وعرضت أن تبذل وساطتها لصالح النائب الثائر وتأييده بالقوة اللازمة لاعلان استقلاله اذا لزم الامر ، وبالفعل وصل الى زنجبار عام ١٨٦٠ دبلوماسي بريطاني وجاء في اثره أسطول قوي رسا فى الميناء بدعوى مراقبة تجارة الرقيق ·

وهكذا بفضل تأييد بريطانيا ، تخلص سلطان زنجبار من تبعيته لسلطان مسقط

1 — Bankhwrst, S., Ex - Jtalion Somali land. London 1951, pp. 13 — 16.

2 — Darcy, la Gonguete de l'Afripue, Garis 1900, p. 235.

3 — Ibid., pp. 237 — 8.

ولكنه دفع ثمن ذلك بأن كان يقدم لبريطانيا أتاوة سنوية ، وبعد عامين (١٨٦٢) عقدت بريطانيا مع فرنسا معاهدة اتفقتا فيها على احترام استقلال سلطنة زنجبار (١)

وبعد ذلك لم يكن لبريطانيا من شاغل سوى كسب النفوذ الادبي فى السلطنة بدلا من فرنسا ، وبالفعل أخذت زنجبار تخضع لبريطانيا شيئا فشيئا ، فالجيش على رأسه ضابط بريطاني ، ويدير البريد وكلاء بريطانيون هذا بالاضافة الى سيطرة التجار البريطانيين على جانب كبير من تجارة البلاد ، ولو أن الالمان كانوا أيضا يسهمون فيها بنصيب كبير · وبات واضحا أن النفوذ البريطاني قد سيطر على البلاد بحيث كان من الصعب منازلته الى أن تم تعيين (جون كيرك) Kirk مستشارا للسلطان سعيد برغش (١٨٧٠ ـ ١٨٨٨) الذي تولى مقاليد السلطنة بعد وفاة السلطان مجيد سعيد ، وكان السلطان الجديد أقل ميلا من سلفه الى الاعتماد على البريطانيين ، فلم يتردد فى الاتصال بفرنسا وألمانيا ١٨٧١ ـ ١٨٧٣ للدخول معهما في مفاوضات ولكنه لم يظفر بأي رد · وعمد (كيرك) من ناحيته الى استدعاء الاسطول الى مياه زنجبار ، وتحت التهديد بضرب الميناء ، اضطر السلطان للخضوع وسافر الى لندن للاعتذار وطلب الصفح (٢) ·

ومنذ ذلك الوقت صار (كيرك) يدير دفة السياسة فى زنجبار بصفة رسمية ، كما أنه من ناحية أخرى بدأت بريطانيا تتطلع الى افريقيا الوسطى كميدان للتوسع الاستعمارى بغية انشاء امبراطورية تماثل ما شيدته فى الهند وكندا واستراليا ، كما أنها بدأت تتطلع أيضا الى توصيل مستعمرة الكاب ـ عن طريق سيطرتها على زنجبار ـ بمنطقة البحيرات الاستوائية حيث بدأت البعثات التبشيرية الانجيلية فعلا عملها للتمهيد لتلك السيطرة ، وفي الوقت الذى كان فيه القنصل البريطاني العام يقبض على زمام السلطة فى سلطنة زنجبار ، كانت أساطيل بريطانيا تجوب سواحل شرق افريقيا بزعم القضاء على تجارة الرقيق ، وان كانت تهدف في الحقيقة الى توطيد النفوذ البريطاني في تلك الارجاء خاصة وأن زنجبار بدأت تنمو باضطراد بعد شق قناة السويس الذي أتاح للجزيرة اتصالا مباشرا مع أوربا ·

ويحاول بعض المؤرخين الانجليز الايهام بأن الحكومة البريطانية فى ذلك الوقت لم تكن تهتم بالتوسع فى شرق افريقيا أو الوصول الى منطقة البحيرات ، ودليلهم على ذلك أنه بعد نشوب الثورة المهدية فى السودان وانعزال حاكم المديرية الاستوائية المصرية دكتور شنتزر Dr. Schnitzer وهو ألماني الجنسية اعتنق الإسلام وتسمى باسم أمين ومنح رتبة الباشوية ، اتصل هذا الحاكم (أمين باشا) بأحد رؤساء البعثات التبشيرية الانجيلية فى عام

1 — Gocheres, J., Situation International de l' Eyypte et du Soudan, Baric 1903, p. 362

2 — Darcy, op. cit., p. 237.

١٨٨٦ وعرض عليه أن يضع المديرية الاستوائية تحت الحماية البريطانية وأنه لما أسرع رئيس البعثة التبشيرية بارسال هذه الهبة الى الحكومة البريطانية عن طريق (كيرك) ، ورفض رئيس الحكومة لورد سولسبرى قبولها قائلا : طالما كان أمين ألمانيا ، فهذا من شأن الالمان وحدهم (١)

ونسي هؤلاء المؤرخون أنه قبل ذلك التاريخ بحوالي عشرة أعوام ، أحس « كيرك » بخطورة النفوذ المصري على زنجبار حين وصل « الكولونيل غوردون » ممثلا للحكومة الخديوية الى منطقة البحيرات الاستوائية عن طريق النيل ، ولما تحقق لديه أن شرق افريقيا هو أفضل مخرج لتلك المنطقة ، بادر الخديوي اسماعيل الى ارسال حملة بحرية بقيادة (ماكيلوب باشا) الى ميناء قسمايو ، وهنا وخز « كيرك » سلطان زنجبار للاحتجاج ، وشاركته فى هذا الاحتجاج البعثات التبشيرية البريطانية وطالبت بتدخل الحكومة ·

ورغم هذا المركز الممتاز الذي باتت تتمتع به بريطانيا فى زنجبار ورغم أنها تخلصت من النفوذ المصرى والنفوذ الفرنسي هناك فان المانيا سرعان ما ظهرت كقوة منافسة ذا خطورة شديدة بعد أن أدركت – وان جاء هذا الادراك متأخرا بعض الشيىء – أهمية التوسع فى تلك المنطقة كضرورة لتنمية التجارة ، فلا غرو أن بدأ كثير من رجال الكشف الالمان يعملون منذ عام ١٨٨٠ فى شرق افريقيا فما بين الساحل ومنطقة بحيرة تنجانيقا ولقي هؤلاء تأييدا كاملا من القنصل الالماني فى زنجبار (رولفس) Rholfs الذى عارضت بريطانيا بشدة فى تعيينه فى نهاية عام ١٨٨٤ ·

ففي ٤ نوفمبر ١٨٨٤ وصلت الى زنجبار باخرة قادمة من تريستا تحمل أربعة مندوبين عن (الشركة الالمانية للاستعمار) برياسة « الكونت بفايل » bfeil وعضوية « الدكتور كارل بيترس » Karl beters واثنين اخرين · وعمد القنصل «رولفوس» الى امدادهم بكل ما يحتاجون اليه واستأجر لهم قاربا حملهم الى الجانب الاخر من المضيق الذي يفصل جزيرة زنجبار عن ساحل شرق افريقيا ، حيث كانت فى انتظارهم قافلة صغيرة أشرف القنصل على اعدادها فى سرية تامة ، ثم لم تلبث تلك البعثة أن اختفت فى داخل البلاد · وبعد ثلاثة أشهر علم البريطانيون أن « الكونت بفايل » وزملاءه قد رفعوا العلم الالماني على نقطة على الساحل ثم صعدوا فى نهر « وامي » مخترقين منطقة (اوساجرا) ووقعوا مع زعماء الوطنيين اثنتي عشرة معاهدة ضمت الشركة بمقتضاها رقعة من الاراضي تبلغ مساحتها ١٥٠ الف كيلو متر مربع ، وان (كارل بيترس) عاد فورا الى برلين حيث أسس فى ٢٢ فبراير ١٨٨٥ (شركة شرق افريقيا الالمانية) Deutsche Ostafrikaniche Gesellsctaft ·
التي حلت محل «الشركة الالمانية للاستعمار» وبعد خمسة أيام منحها امبراطور المانيا

1 — Perham, op. cit., pp. 166 — 7.

وثيقة البراءة للسيطرة على الاراضي التي ضمتها ، والتي تنوي ضمها في المستقبل ، وبادر بابلاغ بريطانيا انه وضع تلك المنطقة تحت حمايته (١)

ثم اتجهت أطماع الشركة الالمانية نحو الجزء الشمالي من الساحل (ساحل الصومال) الذي كان يحكمه سلطان (ويتو) نيابة عن سلطان زنجبار صاحب السيادة على ساحل (بنادير) الذي يضم موانى برافا وميركا ومقديشيو وارشيك ، كما اتجهت أطماع الالمان أيضا الى سلطنتي أوبيا والميجورتين ٠

وبالفعل وقع مندوب الشركة الالمانية في بداية سبتمبر ١٨٨٥ معاهدة مع سلطان الميجورتين معاهدة تخلى بمقتضاها للشركة عن حق احتكار التجارة واستغلال المناجم والغابات وصيد اللؤلؤ وانشاء الجمارك وحق تكوين جيش خاص ، كما وقع المندوب معاهدة ممثالة مع سلطان أوبيا ، ونشط بعض عملاء الشركة حتى وضعوا سلطنة ويتو وكل أراضي الساحل فيما بين وارشيك ومصب نهر تاما تحت الحماية الالمانية ٠

ولم يسكت سلطان زنجبار (ومن ورائه البريطانيون بالطبع) على ذلك الاعتداء على حقوقه ، فبادر بالاحتجاج على هذه المعاهدات ، وأجابت الحكومة الالمانية بأن السلطان لا يسيطر فى الواقع الا على بضع نقط على الساحل ، وان سلطته غير معترف بها فى الداخل وان « اتفاق برلين » Berlin Act يسمح لها بالاستيلاء على هذا الجزء الساحلي لشرق افريقيا طالما أنه لا يخضع لاية دولة ، أما بالنسبة للمناطق الداخلية فان المانيا لم تطبق سوى مبدأ الارض الداخلية Hinterland الذي استخدمته بريطانيا ذاتها مع البرتغال فى منطقة الزمبيزى (٢) ٠

غير أن ذلك كله لم يمنع بريطانيا من الضغط على سلطان زنجبار للاحتجاج على الادعاءات الالمانية ، وعدم التخلي عن حقوقه فى تلك البلاد بمثل هذه السهولة فأرسل ــ تحت ضغط من كيرك ــ قواته الى ويتو وأوساجارا لطرد الالمان ، واسترجاع سيطرته عليها ، وأرسل أيضا ضابطا فى البحرية البريطانية يدعى (ماتيوز) الى منطقة « كلمنجارو » لتثبيت سلطته الشرعية ، ولكن السلطان سعيد برغش لم يلبث أن أذعن للقوة بعد أن ظهرت قطع حربية من الاسطول الالماني فى مياه زنجبار فى ٧ أغسطس ١٨٨٥ ٠

كان ظهور الاسطول الالماني معناه في الواقع الاصطدام ببريطانيا ، ويزعم بعض المؤرخين أن الالمان حاولوا من ناحية أخرى تقوية نفوذهم فى بلاط السلطان عن طريق شقيقته (سلمى) التي أدعوا أنها تزوجت من أحد الالمان (٣) ٠ ولا ندري كيف يسمح السلطان المسلم لشقيقته المسلمة بالزواج من مسيحي ، لذلك فانا

1 — Deville, V., Eartage de l'Afrique, Caris 1898, p. 90., Dercy, op. cit., pp. 239, 292.

2 — Deuille, of. cit., p. 19.

3 — Darcy, op. cit., pp. 262 - 3 .

نستبعد هذا الزعم ·

ولم تجد بريطانيا - حسما للنزاع - بدا من التعاون مع الالمان فى استعمار شرق افريقيا ، فتدخلت لدى السلطان لتوقيع معاهدة لتنظيم التجارة بين بلاده وبين المناطق التي ضمتها المانيا حديثا بحيث بات الاعتراف باستقلال سلطنة زنجبار رهنا بتوقيعه على تلك المعاهدة ·

ولما كان لا مناص من تحديد اراض السلطنة ذاتها فقد قامت بهذا العمل لجنة مكونة من مندوبين عن بريطانيا وفرنسا وألمانيا وزنجبار · وفى أول نوفمبر ١٨٨٦ قدمت كل من ألمانيا وانجلترا للسلطان معاهدة تحدد بمقتضاها منطقتي نفوذ الدولتين كما تحدد أيضا ممتلكات السلطان ولم يسع فرنسا سوى الموافقة على هذه التعديلات فى الخريطة السياسية لبلاد ليست لها فيها مصالح مباشرة · وقد اعترفت انجلترا وألمانيا وفرنسا بسيادة السلطان على المناطق التالية :

أولا : جزر زنجبار وبمبا ولامو ومافيا

ثانيا : شريط ساحلي يمتد من خليج تونجى جنوب راس دلجادو حتى نهر كيبيمي وحتى مصب نهر تانا بعمق عشرة أميال بحرية ويضم مدن قسمايو وبرافا وميركا ومقديشيو وورارشيك

كما حددت المعاهدة منطقتي نفوذ الدولتين ، فاحتفظت المانيا بسلطنة ويتو ولكنها تخلت فى مقابل ذلك عن كل النقط الاخرى على ساحل الصومال وعلى ساحل بنادير وتخلت أيضا عن سلطنتي اوبيا والميجورتين · أما المنطقة الواسعة الممتدة بين الممتلكات الساحلية للسلطان وبين بحيرات نياسا وتنجانيقا وفيكتوريا ، فقد رسم خط يفصل بين منطقة النفوذ البريطانية فى الشمال ومنطقة النفوذ الالمانية فى الجنوب ، ويبدأ هذا الخط من مصب نهر اومبا مارا ببحيرة جيبا ويسير بحذاء قاعدة جبل كلمنجارو حتى خط العرض الاول جنوبا على ساحل بحيرة فكتوريا وتعهدت انجلترا بألا تضم اليها الاراضي الواقعة بين خط التقسيم وبين نهر رافوما على الحدود الشمالية لمستعمرة موزمبيق البرتغالية ، كما تعهدت المانيا من جانبها بألا تضم الاراضي التي ضمتها اليها شركة شرق افريقيا الامبراطورية البريطانية والتي تبدأ من مصب نهر تانا حتى تقاطعه أو تقاطع أحد روافده مع خط طول ٣٨ درجة شرقا ثم يمتد من نقطة التقاطع تلك حتى يصل الى تقاطع خط العرض الاول شمالا مع خط طول ٣٧ درجة شرقا ·

وفى اتفاقية اضافية عقدت فى ٢ يوليو ١٨٨٧ ورغم أنه لم يرسم خط جغرافي معين ، فقد نص على أن يطلق لالمانيا يد العمل فى الجنوب من بحيرة فيكتوريا ، أما بريطانيا فلها الحرية فى أن تعمل الى الشمال منها (١) ·

وباشرت الشركات الالمانية فى الحال استغلال الاراضي التي تم الاتفاق على أن تكون من نصيب الالمان ، فقاموا بزراعة البن والطباق والذرة ، وأظهروا نشاطا

1 — Hertslet, the Map of Africa By Treaty, London 1909, pp. 888 ff .

فرديا عظيما فى ميادين الكشف الجغرافي وفى الابحاث الاثنولوجية واللغوية وعلم النبات وعلم الحيوان ، اذ كانوا قد عكفوا على الدراسة العلمية لافريقيا منذ بداية القرن التاسع عشر ٠

ولم يقف البريطانيون من جانبهم مكتوفي الايدي ، فقامت شركة شرق افريقيا الامبراطورية البريطانية التي يرمزون لها بالحروف Ibea بعمل الدراسات اللازمة لمد خط حديدي من ممباسا الى بحيرة فيكتوريا ، كما جمعت الاموال من أجل أن يتولى الرحالة الانجليزي المعروف (هنري مورتون ستانلي) انتزاع أمين باشا من مديرية خط الاستواء تحت ستار انقاذه عن طريق الصعود من نهر الكونجو ، اذ كان عزم البريطانيين قد استقر على ضم أعالي النيل ووصلها بمستعمرة رأس الرجاء الصالح عبر الاراضي التي اقتطعتها من افريقيا البرتغالية (١) ٠

والمعروف أنه فى خلال الاربعين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر ، لم يستطع أي أوربي أن يتقدم من ممباسا نحو الداخل سوى اثنين من رجال التبشير الالمان ، فكانا بذلك أول من شاهد ثلوج (كلمنجارو) من البيض ، ولكنهما لم تستطيعا التقدم الى أبعد من ذلك بسبب عداء قبائل « المساى » الرعوية شديدة المراس التي اعترضت طريقهما ، أما من تبعهم من البيض أمثال سبيك وبرتون وستانلي وغيرهم من رجال الكشف الجغرافي ، فلم يتقدموا نحو الداخل الا عن طريق باجامويو فى الجنوب ، وظل الطريق من ممباسا الى بحيرة فيكتوريا مغلقا ، ولعل هذا هو السبب فى اهتمام الشركة البريطانية بضرورة فتح هذا الطريق ، فبادرت فى ٢٤ مايو ١٨٨٧ الى عقد اتفاقية مع سلطان زنجبار عهد فيها اليها بادارة الاراضي الواقعة على الساحل فيما بين وانجا وكابيمي فى مقابل مبلغ من المال ، ونالت الشركة كل حقوق السيادة فيها ، مثل فرض الرسوم الجمركية وتنظيم القضاء وتأليف قوة لصيانة الامن العام ، وقصارى القول ان الشركة حلت محل حكومة زنجبار فى ادارة المنطقة الساحلية ، وبالمثل أرادت الشركة الالمانية تثبيت اقدامها فى الاراضي الواقعة داخل مجال نفوذها ، فعهد اليها السلطان فى عام ١٨٨٨ بادارة المنطقة المتدة من وانجا الى رافوما والاشراف على التجارة فيها ٠

وهكذا وضع الانجليز أيديهم على ماليندي وممباسا حيث عملوا على اجتذاب القوافل اليها من الداخل بالاضافة الى تجارة الجزر المجاورة ، وكان من نصيب الالمان سبعة موانىء من بينها دار السلام وباجامويو التي تصل اليها معظم القوافل من الداخل (٢) ٠

---

(١) ترمز الى Imperial British Eact Africa

2 — Deville, op. cit., pp. 95 — 96.
Darcy, op. cit., p. 294; Deville, op. cit., p. 96.

وبدأ الالمان يشغلون مختلف الوظائف فى الادارة الجديدة ، وبادروا الى اتخاذ اجراءات قاسية ضد تجارة الرقيق واستيراد الاسلحة مما أدى الى نشوب اضطرابات خطيرة فى (بانجاني) في اغسطس ١٨٨٨ ، اذ أن السياسة الخرقاء التي اتبعها الالمان أثارت عليهم الوطنيين ، فقد فرضوا ضرائب جديدة ورفعوا رسوم الاستيراد على بعض السلع وحرموا العرب من وظائفهم وخاصة الذين كانوا يديرون شؤون الجمارك وحل محلهم موظفون ألمان ، أضف الى ذلك أنهم لم يحترموا عادات الناس أو معتقداتهم ، بل لقد اتهموا أحيانا باغتيال بعض الزعماء مع أن ادارة مثل هذه البلاد كان يتطلب الكثير من الحكمة والمهارة ، اذ ينبغي أولا وقبل كل شيء استمالة الزعماء والاستعانة بنفوذ السلطان لاعداد الوطنيين والعرب لقبول السيادة الاوروبية الجديدة

وكان من الطبيعي جدا أن هذه السياسة التي تقدم على المساس بمشاعر السكان ومصالحهم واثارتهم بوسائل القمع الشديدة ـ لابد وأن تؤدي الى أوخم العواقب ، فشهر الاهالي السلاح فى وجه المستعمرين على طول الساحل مما دعا الشركتين المتنافستين الالمانية والانجليزية الى انهاء التنافس بينهما بصفة مؤقتة لمواجهة الخطر المشترك الذي بات يهدد مصالحهما ·

ووجد الثوار فى شخصية زعيم وطني مسلم من سكان (بانجاني) ويدعى « بشيرى » قائدا لا يعوزه الذكاء والدهاء ولم يكن المستشار الالماني « بسمارك » ليميل الى الانغماس فى الشؤون الاستعمارية ، فهو لم يسمح للشركات الخاصة بالعمل الا من أجل أن يتفادى ارسال حملات عسكرية الى تلك المناطق النائية ، غير ان ثورة الوطنيين أكرهته على التدخل بالقوة فى شرق فاريقيا ·· وقامت الاساطيل الالمانية والانجليزية بأعمال مشتركة لفرض الحصار على الساحل وحماية رعايا الدولتين الذين هجروا مراكزهم فى المزارع الداخلية خشية الاصطدام بالثوار ، وتلى ضابط الماني يدعى (فيسمان) Wissmann مهمة القضاء على الاضطرابات ، ووقع (بشيري) فى الاسر فى ديسمبر ١٨٨٩ وأعدم ، ولكن الامن لم يستتب تماما الافى منتصف العام التالي (١) ·

وقد اعترفت الحكومة الالمانية بأن سبب قيام الثورة يرجع الى أن موظفي الشركة كانت تعوزهم الخبرة الكافية ، فعينت مندوبا عنها فى الشركة التي ضمنت بذلك العون المالي والعسكرى للدولة ، وباتت تنفق ألفين من الروبيات فى مقابل كل روبية واحدة تنفقها الشركة الانجليزية (٢)

وقد أدت ثورة بشيري الى قيام علاقات حسن الجوار بين الانجليز والالمان ، وأصبح من الضروري ـ لمنع نشوب أية اضطرابات أخرى ـ ادخال بعض التعديلات على تحديد مناطق نفوذ الدولتين ، وبالفعل وقعت بينهما معاهدة فى ١٤ يونيو ١٨٩٠ لتسوية المسائل المعلقة بينهما ·

1 — Darcy, op. cit., p. 295, Deville, op. cit., pp. 97 - 98.

2 — Ferham, op. cit., p. 173.

فقد تخلت انجلترا لالمانيا عن كل المنطقة الواسعة الممتدة من المحيط الهندى حتى الساحل الشرقي لبحيرة تنجانيقا . وفي الشمال رسمت الحدود بخط يمتد على طول خط العرض الاول جنوبا من دولة الكونجو الحرة حتى الساحل الغربي لبحيرة فيكتوريا مارا بجنوب جبل ممفيرو كما سمحت للالمان بملكية جميع الاجزاء الساحلية التي كان السلطان قد تنازل عنها بالايجار لشركة شرق افريقيا الالمانية بشرط ألا يتجاوزوا شمالا جبل (كلمنجارو) ، وذلك فى مقابل أن يتخلى الالمان عن سلطنة ويتو ولامو ، وأن يعترفوا بالحماية البريطانية على زنجبار وبمبا وجزر أخرى على الساحل ، وحصل الالمان على جزيرة « هليجولاند » فى بحر البلطيق ومعها أربعة ملايين من الماركات .

أما انجلترا فقد نالت من السلطان ـ بالاضافة الى حقوق السيادة ـ تنازله عن خط ساحلي يبلغ طوله أكثر من ألفي كيلومتر ، يبدأ من مصب نهر تانا حتى الضفة الجنوبية لنهو جوبا وهو يضم الجزء المقابل لجزيرة لامو بالاضافة الى موانىء قسمايو وبرافا ووارشيك ومقديشيو ، وبذلك تكون كل من انجلترا والمانيا قد خرقتا اتفاقية ١٠ مارس ١٨٦٢ التي وقعت عليها أيضا فرنسا (١) والتي تعهدت الدول الثلاث فيها بضمان استقلال سلطنة زنجبار الاسلامية

وكان الالمان قد حققوا انتصارا استعماريا كبيرا فى داخل القارة حين فرض الاستعماري الالماني (كارل بيترس) على ملك أوغنده (موانجا) معاهدة اعترف فيها بالحماية الالمانية على بلاده فى فبراير ١٨٩٠ ، لذلك فان معاهدة ١٤ يونيو ١٨٩٠ أصابت العالم كله بدهشة كبيرة ، وعلق عليها الرحالة الانجليزي المعروف (ستانلي) الذي كان وقتئذ يعلم حقيقة الموقف فى داخل القارة السوداء : « ان المانيا قد تخلت عن « بنطلون » جديد فى مقابل زر سروال قديم » (٢) .

وأصيب الدكتور كارل بيترس بخيبة أمل شديدة بعد أن ظهر أن نجاحه العظيم فى أوغنده لم يعد له قيمة ، وأنحى « فيسمان » المندوب الامبراطورى فى شرق افريقيا الالمانية باللائمة على بلاده لتخليها عن زنجبار ، وقال « اننا بذلك نكون قد تخلينا لانجلترا عن مفتاح الساحل الافريقي كله » (٣) . هذا فضلا عن الاشراف على التجارة اذ أن موانىء (باجاموبو) و (بانجاني) التي صارت من نصيب المانيا لم تكن صالحة لرسو السفن الكبيرة عابرات المحيط ، فى حين ان وجود الانجليز فى زنجبار وبمبا يتيح لهم السيطرة على التجارة الالمانية ، كما

---

(١) نالت انجلترا موافقة فرنسا على ذلك ببعض التعويضات فى اعلان صدر عن لورد سولسبرى فى ١٥ أغسطس ١٨٩٠ اعترفت فيه بالحماية الفرنسية على مدغشقر وبمناطق النفوذ الفرنسية فى أجزاء أخرى من القارة الافريقية أنظر Gocheris, op. cit., p. 365 :

2 — Darcy, op. cit., p .260.

3 — Ibid., p. 261.

أعلن المستشار الالماني (بسمارك) استياءه لوضع سلطان زنجبار تحت حماية بريطانيا الامر الذى سوف يؤدى ـ فى رأيه ـ الى الاضرار بالمصالح التجارية لبيوت هامبورج فى تلك البلاد (١) ٠

وفى اتفاقية أول يوليو ١٨٩٠ تخلى الالمان عن كل حقوقهم فى الاراضي الواقعة الى الشمال والجنوب من مجال النفوذ البريطاني الذي كان قد تحدد بصفة مؤقتة فى عام ١٨٨٦ ، كما اعترفوا ـ كجزء من مجال النفوذ البريطاني ـ بكل الاراضي الواقعة الى الشمال من مجال النفوذ الايطالي فى الصومال حتى حدود مصر وغربا حتى خط تقسيم المياه بين النيل والكونجو ودولة الكونجو الحرة ٠

وكان لورد سولسبرى يرى ان أهم شيء تم الحصول عليه هو حرية العمل بين المحيط الهندى والنيل ، فكتب للملكة فكتوريا يقول : ان كل البلاد التي تحف بالحبشة وبلاد الجالا سوف تكون تحت النفوذ البريطاني شمالا حتى الخرطوم (٢)
ولم يكن أحد فى المانيا يدرك السبب فى تنازل الحكومة عن مكاسب جاءت نتيجة لجهود عشرة أعوام ٠

ويرى البعض أنه منذ أن اعتزل (بسمارك) السياسة عام ١٨٩٠ ، أصاب سياسة المانيا الافريقية تعديل جوهرى ،ففى ١٤ يونيو تخلت عن زنجبار وعن النيل ثم عملت على استدعاء (فيسمان)أحد كبار أنصار التوسع الالماني فى شرق افريقيا ، فهل معنى ذلك أن كل هذا جاء كرد فعل طبيعي لفترة مليئة بالاعمال والجهود الضخمة أيام (بسمارك) ؟
يقول أحد المؤرخين الفرنسيين : « لايمكن القول بأن « بسمارك » كان معارضا للسياسة الافريقية ، أو أن اعتزاله كان دليلا على انتصار سياسة أنصار التوسع فى افريقيا ، ونحن على العكس من ذلك نعتقد أنه لو ظل (بسمارك) محتفظا بمنصبه لما فقد الرجال أمثال بيترس وفيسمان ثمار جهودهم الطويلة ، والدليل على ذلك أن « بسمارك » كان دائم الاعتراض على معاهدة ١٨٩٠ فكان يقول ان هذا العمل لم يعجبني على الاطلاق !

« ويبدو ان الامبراطور غليوم كان فيبداية عهده اقل اهتماما بالتوسع في المناطق البعيدة ، وكان همه ينحصر في رفع العلم الالماني فوق « هليجولاند » التي استبدل زنجبار بها ، ولكن ليس معنى ذلك أنه لم يكن مهتما بالتوسع الالماني خارج البلاد ، فهو على العكس قد دفع بشعبه لمحاولة غزو العالم اقتصاديا ٠٠٠ ولكنه لم يكن يود أن يسير فى الشوط حتى نهايته ، لانه كان يدرك تماما انه لن يتمكن من متابعة سياسته الافريقية دون أن يصطدم بالانجليز فى الوقت الذي كان فيه التقارب بين فرنسا وروسيا يزداد يوما بعد اخر » (٣) ٠

1 — Deville, op. cit., p. 101.

2 — Letters of Queen Veictoria, London 1931, vol. 1, p. 613, vide also, London, W., The Diplomacy of Imperialicim, New york 1935, vol. 11, p. 119.

3 — Dercy, op. cit., pp. 241 - 3.

وينبغي ألا ننسى أن المانيا عام ١٨٨٥ لم تكن قد وضعت يدها بعد سوى على عدة نقاط على الساحل الشرقي لافريقيا ، فصارت الان وبعد فترة لا تزيد على خمسة أعوام وبمقتضى معاهدة ١٨٩٠ صاحبة الامر فى تلك المنطقة الواسعة الممتدة من المحيط الهندى الى بحيرات نياسا وتنجانيقا وفيكتوريا (١) .

ومن ناحية أخرى لم يكن ما حصلت عليه انجلترا وفقا لمعاهدة أول يوليو ١٨٩٠ مثل « ويتو » وغيرها ليهمها كثيرا ، اذ ان هذه كلها مكاسب ثانوية بالنسبة للهدف الاساسي وهو الحصول على اعتراف رسمي من دولة أجنبية ـ المانيا ـ بتأييد ادعاءاتها فى أعالي النيل ، فقد بدأنا نرى بعد ذلك مباشرة الخرائط الانجليزية ، وقد صبغت بالصبغة الانجليزية مناطق بحر الغزال وكردفان فى السودان ، مع أن قوات بريطانيا لم تكن قد دخلتها حتى تلك الساعة (٢) .

ويميل بعض المؤرخين الى الاعتقاد بأن السبب فى قبول حكومة برلين لمعاهدة ١٨٩٠ ، يرجع الى أنها لم تكن تدرى أن « كارل بيترس » قد نجح فى انتزاع معاهدة الحماية على اوغنده من ملكها (موانجا) الذى وقعها بكل حريته ودون أي ضغط أو اكراه ، فلما عرفت البلاد فيما بعد انها خدعت ، لم يقف غضبها عند حد (٣) .

وفى اعتقادى أنه لو فرض أنه نمى الى علم حكومة برلين نبأ نجاح بيترس فى فرض الحماية الالمانية على اوغنده ، لما ترددت مع ذلك فى توقيع معاهدة ١٨٩٠ ، فان التقارب بين فرنسا وروسيا الذى انتهى الى التحالف فعلا عامي ١٨٩١ ، ١٨٩٤ كان يزداد يوما بعد يوم ، لهذا كان من صالح الالمان استرضاء الانجليز لامجرد تحاشي الاصطدام بهم بأية وسيلة .

وينبغي مع ذلك ألا نحمل معاهدة أول يوليو ١٨٩٠ أكثر مما تطيق ، فلا يمكن اعتبارها بمثابة تأييد المانيا لانجلترا فى سياستها فى مصر أو انها كانت بمثابة اشراك انجلترا فى التحالف الثلاثي الذي كان يتألف من المانيا وايطاليا والنمسا »

---

1 — Deville, op. cit., pp. 101 - 2 .
2 — Robert De Gaix, Fachoda, Garic 1899, p. 28.
3 — Gocheris, op. cit., p. 366.

✱ ● ✱